«لولاش»..
مصلحة درويش سابق على باب السيدة

(١)

قال سائق التاكسي بلهجة ساخرة: «شي لله يا سيدة»، عندما أوقفت رابع تاكسي يمر أمامي كدت أفقد الأمل في العثور على توصيلة إلى ميدان السيدة زينب، ولكن هذا الرجل كسر القاعدة، وهو يشيح لي بيده؛ كي أركب مسرعًا.

لا يختلف صالون سيارته عن كابينة توكتوك صغيرة تعجّ بموسيقى المهرجانات المؤذية لأذني، زرت الطبيب منذ أسبوع لأعرف سببًا لضعف السمع الذي أصابني فجأة، قال لي الطبيب: «توقف عن استخدام الهاتف المحمول بكثرة، لا تزد مكالمتك على دقيقتين، ولا تُجرِ أكثر من خمس مكالمات يوميًا على أقصى تقدير»، انتهزت النصيحة كمبرر منطقي لعدم الرد على أكبر قدر من المكالمات، خاصة أنني أصبحت مدمنًا للتواصل عبر تطبيق «واتساب»، سواء بالكتابة أو بتسجيل مقاطع صوتية سريعة، وأنا الآن أريد أن أرسل «فويس نوت» لصديقي الذي ينتظرني أمام كبابجي الرفاعي منذ نصف ساعة، ولكن السائق مُصرّ على خفض الصوت بشكل وهمي، درجة أو درجتين لا تفرق في شلالات الصخب والتلوث السمعي القادم من تابلوه السيارة.

سألني سائق التاكسي: «حضرتك رايح تزور إن شاء الله؟».

قلت له: «مش كل من راح السيدة، طالب زيارة أم العواجز».

شعر الرجل بغموض في كلامي، حاول أن يفكه بقوله: «كله على الله»، أعرف أن «كله على الله.. مش على كبالن» ولكنني أتأمل هذه العبارة لأراها أسلوب حياة، كم مرة جلست على المقهى منتظرًا فرصة عمل تأتيك من السماء؟ أنا شخصيًا فعلتها كذا مرة ونفعت، فلا تصدّق «بتوع التنمية البشرية»!

هذه الأسئلة عادة تقودنا إلى مناطق شائكة كلما سرت فيها اضطررت لخلع فردة من حذائك لتنزف أكثر، أو ربما يجبرونك أن تزحف على بطنك عاريًا فوق زجاج مكسور، هل تذكر هذه العقوبات الدموية التي مارستها السلطة في القرون الوسطى بمباركة رجال الدين على كل من أراد التفكير خارج الصندوق؟ كانت عقوبات مجدية حقًا حتى خرج الصندوق نفسه ولم يعد، دائمًا هناك فرق واضح بين التواكل على الله والسير في معيته، لست صوفيًا، ولكن استجلاب معية الله فنّ يحمل شيئًا من رائحة المعجزات، إلا أنها معجزات بسيطة قد تأتي بتقديم مشيئته، وأكبر دليل على ذلك قصة «جحا» الذي أراد يومًا شراء حمار، وأخذ يخبر كل من يقابله عن نيته في الذهاب إلي السوق في الصباح الباكر لشراء حمار، فنصحه أحدهم: «بأن يا جحا قل إن شاء الله غدًا سأشتري حمارًا»، فردّ عليه «جحا» بثقة الواثق: «ولماذا أقول إن شاء الله؟! دنانيري في جيبي، وما أكثر الحمير في

الأسـواق».

وفي اليـوم التـالي ذهـب «جحـا»، وعـاد مـن السـوق مطأطـئ الـرأس، خـالي الوفـاض دون حمـار، فسـألوه: «أيـن حمـارك يـا جحـا؟» فقـال: «إن شـاء الله سُرِقَـت كل دنانـيري».

هـذه القصـة لا تثير في ذهنـي غالبًـا سـوى سـخرية مـن هـؤلاء الذيـن تسـألهم: «اسـمك إيـه؟»، فـيرد: «إن شـاء الله أحمـد!».

(٢)

ونحـن نمـرّ مـن شـارع نوبـار قـرر السـائق فجـاة بـدء وصلـة المواعـظ والحكـم، تحولـت بعـد جملتـين إلى شـكوى مـن ضيـق الحـال وسـوء المنقلـب وسـواد العيشـة، ثـم انتهـى العـرض بتبريـر سـابق لأي سـلوك شـمال ينتهجـه الكائـن المـصري بحثًـا عـن لقمـة العيـش.

قبـل أن يـرنّ جـرس هاتفـه المحمـول قـال لي: «يـا بيـه أنـا لـو لقيـت أي مشـوار شـمال هخـش فيـه، أنـا بـصرف عـلى ولادي وأمهـم وأمـي وولاد أخويـا الميـت»، ثـم ردّ عـلى الإتصـال لاكتشـف أننـي بجـوار ديلـر محـترف سـيوصل سـيجارتين حشـيش لزبـون في أبـو الريـش!

أغلـق الهاتـف، وابتسـم عارضًـا خدماتـه عـليّ، قـال ببلاهـة مقـززة: «لـو حضرتـك مزنـوق في مصلحـة محسـوبك سـدّاد، ومبشـتغلش في حتـت مضروبـة»، ثـم قفـز برأسـه خـارج نافذتـه ليـصرخ في وجـه فتـاة وقفـت عـلى الناصيـة قائـلًا: «ده لـو لاش قلبـه مايوعـاش».

openiran.com

هـذا تكنيـك جديـد في المعاكسـة، أو كـما أسـميه بدقـة التحـرش، وهـذا أول مواطـن يـمارس تحرشـه بكوبليـه مـن أغنيـة لحسـام حسـني مـرّ عليهـا ربـع قـرن، لا أخفـي إعجـابي بشـياكة الإفيـه، ربـما كان السـبب أن الرجـل في منتصـف الأربعينـات، هـذا الجيـل الـذي حـضر زمـن التحـرش الجميـل، قبـل أن تُبتـذل الكلمـة وتصبـح مسـميات أعضـاء البنـي آدمـين منتهكـة عـلى المـلأ، وقبـل أن نـرى مطربًـا يغنـي: «آه يابـت يـا خايبـة أعصابـك سـايبة» مثـلًا.

عندمـا ظهـر حسـام حسـني بأغنيـة «لـولاش» اعتـبره النقـاد وقتهـا اسـتمرارًا لمسلسـل انهيـار الأغنيـة الـذي قـاده حميـد الشـاعري، ولكـن «حسـام» محظـوظ فقـد ظهـر في أواخـر الثمانينيـات بعـد سـنوات الكفـاح الأولى لـ«حميـد» ورفاقـه، كانـت آذان المسـتعمين قـد تهيـأت لاسـتقبال أي شيء مختلـف بعـد نجـاح «لولاكـي» وبـزوغ نجـم إيهـاب توفيـق ومصطفـى قمـر وهشـام عبـاس، وظهـور عـشرات الأصـوات تحـت عبـاءة حميـد الشـاعري.

المفارقـة أن ألبـوم «لـولاش» صـدر في ٤ يونيـو ١٩٩٠، في عـزّ مباريـات كأس العـالم بإيطاليـا، كانـت مـصر مـن شرقهـا لغربهـا متعلقـة بأخبـار المنتخـب الـذي وقـع في مجموعـة المـوت مـع هولنـدا وإنجلـترا وأيرلنـدا، والشـوارع تهتـف باسـم رجـل واحـد فقـط هـو محمـود الجوهـري، قـال لي أحـد أصدقـاء أبي إن «الجوهـري» وقتهـا كان أهـم شـخصية سياسـية في مـصر، لم أفهـم لـماذا سياسـية؟ ولكنني كـبرت وعرفـت أن صنـاع الانتصـارات الكرويـة يُخلـدون للأبـد، بينـما تُلقـى أسـامي الرؤسـاء والملـوك في

أقـرب سـلة مهمـلات فـور رحيلهـم.

اعـترض حسـام حسـني عـلى قـرار المنتـج طـارق عبـد الله بطـرح الألبـوم في هـذا التوقيـت، ولكـن صاحـب شركـة «هـاي كواليتـي» كان رجـلًا طيـب النيـة، لحـد أن صـوّر لـه عقلـه أن المنتخـب قـادر عـلى الفـوز بـكأس العـالم، وهـذه أفضـل دعايـة للألبـوم، خرجـت مـصر مـن الـدور الأول، وانتهـى كأس العـالم بالنسـبة للمصريـين، وانطلـق النـاس إلى مصايفهـم في المعمـورة والعجمـي وميامـي، ومـاذا حـدث لـ«لـولاش»؟

يحكـي حسـام حسـني: كنـت أتـولى توزيـع ألبـوم محمـد محيـي الأول «أنـا حبيـت»، ولا وقـت لـديّ لأعـرف أخبـار ألبومـي، وفجـأة كنـت في طريقـي لمنـزلي بالمعـادي، وسـمعت أغنيـاتي قادمة مـن كاسـيت سـيارة تقـف الى جانبـي في إشـارة المـرور، فرحـت، ولكننـي ظننـت أنهـا «حالـة فرديـة». بعـد أسـبوع تلقيـت اتصـالًا مـن موزعـي الكاسـيت يخـبروني بـأن مبيعـات الألبـوم في ارتفـاع ملحـوظ، سـألت طـارق عبـد الله فقـال لي: «الشريـط شـغال زي الفـل».

لحّـن حسـام حسـني أغنيـة «لـولاش» أولًا، وكتـب كلماتهـا عنـتر هـلال، الـذي تـراه شـلته «صـلاح جاهـين» المرحلـة، لـن أتوقـف كثـيرًا أمـام التوصيـف، ولكـن عنـتر هـلال كشـاعر لـه بصـمات مثـيرة للجـدل في مسـيرة الأغنيـة المصريـة أهمهـا عـلى الأطـلاق تجربـة «كامننـا»، حالـة «الدروشـة» التـي غلفـت كلـمات الأغنيـة، وربـما شـكّل حسـام حسـني الـذي بـدا كشـاب خليجـي يغنـي باللهجـة المصريـة كانـت تأشـيرة عبـور صاحبهـا إلى أرض الشـهرة، والحقيقـة أن الصبغـة الخليجيـة في ملامـح حسـام حسـني

ليست غريبة على شاب وُلد وترعرع في الكويت!

بعد شهر اتصل متعهد حفلات بحسام حسني يطلبه في حفل بالمعمورة، لم يصدق صاحب الأغنية حتى جاءه اتصال من عزت أبو عوف.

(٣)

يحكي «حسام» القصة قائلًا: رنّ جرس الهاتف، رديت فقال لي المتصل: أنا عزت أبو عوف، ظننت أنها معاكسة سخيفة، وأغلقت الهاتف، فاتصل مجددًا، وقال: يا ابني إزاي تعمل أغنية زي دي مكسرة الدنيا ومتعرضهاش عليّ؟».

يعترف حسام حسني بأنه لحّن أغنية «لولاش» لكي يغنيها فريق «الفور إم»، ولكنه فشل في الوصول لعزت أبو عوف، إلا أنه أخبره هذه القصة عندما قابله في مسرح الهوسابير ليتفقا على أن يحيي «حسام» عيد ميلاد «عزت» الذي يقيمه كل عام في العجمي.

سأل مدير أعمال «عزت» «حسام» عن أجره فلم يجد ردًا، هو لم يحدد أجره كمطرب في حفلات بعد، وكانت هذه مفاجأة في حد ذاتها لصاحب الحفل.

عيد ميلاد عزت أبو عوف كان ملتقى نجوم الوسط الفني في تلك الفترة، وعادة ما يحييه أهم نجوم الأغنية مثل عمرو دياب، ومحمد فؤاد، وطلعت زين، وعندما حكي «حسام» القصة لعنتر هلال قال له: «إوعى تكون تهيؤات!».

نجح حسام حسني، لون جديد وغناء مختلف وكلمات على ذوق مراهقي التسعينيات، أصبح «حسام» نجمًا تطارده

المعجبات، فتحسّر عنتر هلال قائلًا: «أنا شاعر في الظل، وانت بقيت نجم وكل البنات بتحبك»، فالتقط «حسام» الجملة لتتحول لمطلع أغنيته الأشهر «كل البنات بتحبك»، ظلت الأغنية محفوظة في الذاكرة حتى أعادها أحمد مكي للحياة بإفيه في فيلمه الشهير «لا تراجع ولا استسلام»، بعدها بحث كثيرون عن حسام حسني الذي اكتفى بالتوزيع وهندسة الصوت لسنوات طويلة.

قابلت «حسام» منذ سنوات عندما حلّ ضيفًا على برنامج شاركت في إعداده، فوجئت بأنه يحمل دكتوراه في الموسيقى الأوبراليه، بل إن موضوع الرسالة كان حول دور بيتهوفن في تغيير علم الهارموني في الموسيقى الأوبرالية وأداء الأوركسترا، شيء مُعقّد للحقيقة، ولكنه مدهش مثل زبيبة الصلاة التي تتصدر جبهته وهو يغني ويرقص إلى جوار المذيعة.

وصلت لميدان السيدة، أخرجت من جيبي ١٥ جنيهًا أعطيتها للسائق الثرثار، التقطها بامتنان قبل أن يقول: «كان نفسي أخشّ أصلي ركعتين في الجامع ما دام جبتني هنا، بس أروح أقضي المصلحة الأول وربنا يسامحنا!».

«لولاش»
غناء: حسام حسني
ألحان وتوزيع: حسام حسني
كلمات: عنتر هلال
إنتاج « هاي كواليتي